مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الحياة البلدية لمدن موريطانيا الطنجية
مظهر من مظاهر الرومنة

د. هشام ابورك

باحث في التاريخ القديم والأركيولوجيا

وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة

المملكة المغربية

مُلَخّص

لم تكن الحياة البلدية (la vie munipale) بمدن موريطانيا الطنجية سوى آلية من آليات سياسة الرومنة، فبعد إرساء الآلية الأولى المتمثلة في الرومنة القانونية –إحداث وضعيات قانونية جديدة لم تكن معروفة بالمجال المذكور: مستوطنات، بلديات ومدن أجنبية–، عمدت روما إلى نقل تجربتها البلدية التي ظهرت خلال العهد الجمهوري بالأراضي الإيطالية إلى المجال المغربي القديم انطلاقا من نهاية العهد الجمهوري وطيلة القرون الثلاثة الأولى للميلاد. ولتحقيق هذا الهدف ارتكزت السلطات الرومانية على نظام بلدي مركزي، وقوانين بلدية متنوعة، ونخبة محلية ضاغطة تشكلت من مختلف العائلات المترومنة، ومناصب بلدية متنوعة ومستحدثة، وغيرها من الركائز الأساسية التي ساعدت على تحقيق الرومنة البلدية، بعبارة أدق انصهار الساكنة المحلية للمدن في منظومة الحياة الرومانية بكل تجلياتها. وقد تبين أن الآثار الرومانية واضحة على مناحي الحياة البلدية المختلفة لمدن موريطانيا الطنجية. وقد اتخذت هذه التأثيرات، التي هي في حقيقتها رومنة واضحة، أبعادًا سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وثقافية. فرغم استمرار اللغتين البونية والبونية الجديدة في التداول على المستوى الشعبي فيما يبدو بهذه المدن، إلا أن اللغة اللاتينية وجدت مكانًا لها ضمن فئات عريضة من المجتمعات المحلية للمدن، وهو الأمر الذي سهل عملية الإسراع في مسلسل الرومنة في الميادين المختلفة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٨ مايو ٢٠٢٤

تاريخ قبول النشر: ١٠ يونيو ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

موريطانيا الطنجية؛ الإمبراطورية الرومانية؛ الحياة البلدية؛ سياسة الرومنة.

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.288011.1130

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

هشام ابورك. "الحياة البلدية لمدن موريطانيا الطنجية: مظهر من مظاهر الرومنة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٤ – ٢٤.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: ibourkhicham9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

لم تكتف السلطات الرومانية بالرومنة القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، بمعنى تحويلها إلى مستوطنات وبلديات، بل إنها استكملت سياسة الرومنة الشاملة لساكنة هذه المدن من خلال رومنة الحياة اليومية أو ما يكمن تسميته برومنة الحياة البلدية لهذه المدن. لقد استنفرت روما مجالات هذه الحياة -سياسة، إدارة، اقتصاد، اجتماع، ثقافة، دين. لتحقيق اندماج أفضل وتثاقف مستدام لساكنة مغربية قديمة كانت بالأمس القريب تتبنى الإرث البوني منهجا لها.

أولاً: الرومنة السياسية والإدارية

مهدت روما لرومنتها السياسية والإدارية للمجال الموري بسلسلة من الإجراءات السياسية والسيادية، كان أولها فرض نظام الحماية على الممالك الموروية كمرحلة أساسية نحو الهيمنة الشاملة للمجال المذكور، صاحَبها تغلغل روماني واضح على مستوى العملة المحلية التي عرفت تأثيرًا لاتينيًا جليًا. تلا هذه العملية إعادة تنظيم المجال الجغرافي، حيث بات القسم الغربي من موريطانيا[١] يعرف باسم موريطانيا الطنجية، بعدما كان بالأمس القريب يسمى موريطانيا الغربية. وانتهت باستجلاب النموذج المديني الروماني، أي الوضعيات القانونية المعروفة بإيطاليا والحديث هنا عن المستوطنات والبلديات[٢]، وإسقاطه على المدن الموريطانية التي كانت تتبع غالبيتها نظام الحكم البوني على ما يبدو.

ويعتبر النظام البلدي (le système municipal) أعمق تحول عرفته المدن الموريطانية خلال التغلغل الروماني على الإطلاق، وهو في حقيقته مسلسل رومنة سياسية وإدارية جد معقد وطويل الأمد. وقد تدخلت فيه العديد من الاعتبارات الداخلية والخارجية، وكذلك المحددات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية والثقافية. لم يعهده الموريون[٣] الذين ألفوا النموذج البوني[٤] المتجذر، رغم التشابه الحاصل على مستوى المناصب كما هو الشأن بالنسبة لمنصب الشوفيط. ويبدو أن إرساء النظام البلدي (la municipalisation) بالمجال المغربي القديم قد تزامن وخيار الرومنة الشاملة للمجال المذكور. ومن الملاحظ أن هذه الرومنة لم تكن بنفس الحدة التي شهدتها أقاليم أخرى مجاورة مثل البروقنصلية مثلا، إلا أنها تركت بصماتها على المشهد السياسي والإداري حتى بعد الانسحاب الروماني من موريطانيا الطنجية. ودون شك فإن الرغبة كانت جامحة لدى الرومان خلال بداية العهد الإمبراطوري الأعلى لمسح آثار وبقايا التأثيرات البونية (puniques) والبونية الجديدة (néopuniques).

وإذا كان فيفريي (P.A. Février) قد ركز في إحدى مقالاته على توسع الظاهرة العمرانية بشمال إفريقيا عمومًا واعتبارها العلامة الأكثر وضوحا لسياسة الرومنة[٥]، فإننا نعتبر سياسة إرساء النظام البلدي بموريطانيا الطنجية بوجه خاص مظهرًا سياسيًا وإداريًا مهمًا لسياسة الرومنة التي انتهجتها السلطات الرومانية بالمنطقة. وتحدث الباحث كاسكو (Gascou) في هذا الإطار عن الدور الكبير للأهالي الأكثر ترومنا في التنظيم البلدي للموريطانيتين[٦]. وتُعَدّ المدن التي تتمتع بوضعيات قانونية متنوعة، أي المستوطنات ذات القانون الإيطالي والروماني واللاتيني والبلديات الرومانية واللاتينية، من أهم تجليات النظام البلدي الروماني الذي نتحدث عنه في هذه الورقة. ناهيك عن التنظيم السياسي والإداري الذي تمتعت به هذه المدن، والتراتبية الوظيفية – المناصب البلدية- التي أسست لها من أعلى منصب بلدي، أي الدومفير، إلى أدنى موظف قد تعرفه.

لقد جاءت هذه النماذج لتحل محل النماذج ذات المؤسسات البونية، وحسب العديد من الباحثين فإن ولاية أفريقية كانت بونية أكثر منها رومانية خلال القرن الأول للميلاد، وتحولت انطلاقًا من القرن الثالث للميلاد رومانية أكثر منها بونية. والدليل على ذلك ما ورد في الوثائق الإبيغرافية المختلفة التي أكدت وجود مدن شمال إفريقية عمومًا ومغربية (خصوصا وليلي)، حافظت على المؤسسات البونية خاصة منصب الشوفيط. لقد استمرت النقائش باللغة البونية الجديدة خلال القرن الثاني للميلاد، وتواصلت عبادة الإله بعل حمون (Baal Hamoun)الذي شبه بساتورن (Saturne) في الانتشار كذلك بنفس المجال[٧].

وفي السياق ذاته يمكن الحديث عن الكوريات (curies) باعتبارها المؤسسات الأولى في مسلسل الرومنة السياسية والمؤسساتية. فقد كانت آلية أولية لاندماج الأجانب (peregrinus) داخل الحياة البلدية، راهنت عليها روما بشكل كبير في هذا الإطار، وأحاطتها بكثير من العناية والاهتمام، إذ ظهرت بشكل خاص في قانون بلدية إيرني اللاتينية (Municipium Flavium Irnitanum) بالبيتيكا. ولقد اعتبرت هذه المؤسسات البلدية شكلا جديدا من أشكال التمثيل السياسي على المستوى المحلي، كما عملت روما على نقلها ونشرها بالمجال الموريطاني[٨]. وظهر الأمر جليًا من خلال المناصب البلدية المستحدثة، وعلى رأسها منصب حاكم المدينة أو الدومفير (Duumvir) الذي عوض الشوفيط (Suffète)[٩]. فبعدما كان المنصب الأخير وراثيا قبل مجيء الرومان، كما توضح ذلك نقيشة عبارة عن نصب تذكاري عثر عليه بوليلي يظهر بجلاء أن عائلة هذا الشوفيط مارست سلطتها على الساكنة المحلية منذ منتصف القرن الثالث قبل الميلاد[١٠]، أصبح انتخابيًا خلال حكم الرومان. كذلك تدل هذه النقيشة على وجود الشوفيط كمؤسسة بونية بهذه المدينة.

عرفت المناصب البلدية أيضًا تنوعًا كبيرًا فرضته مجالات الحياة اليومية بالمدن من جهة، وتوسع المجال الروماني من جهة ثانية. وأصبح الحديث عن الاختصاصات والمهام المحددة داخل المدن بعدما كان الأمر مقتصرًا على تلك المهمة فقط. لقد فرضت السلطات الرومانية، على المستوى الإداري بمجال موريطانيا الغربية واقعين إداريين جديدين، بعدما كانت المدن المستقلة والقبائل الحرة هي السائدة، وهما المدينة والإقليم اللذان تمت فيهما إعادة صياغة النظم الإدارية وأساليب التدبير المحلي. ونسجت بينهما علاقات وروابط متعددة، تراوحت بين التبعية تارة والتكامل تارة أخرى.

ثانيًا: الرومنة الاقتصادية

يتحدث الكثير من الباحثين الأوربيين عما أسموه الرومنة الاقتصادية لمجال شمال إفريقيا الروماني، وضمنه مجال موريطانيا الطنجية، وهكذا نجد تفرعات لهذه الرومنة مثل الرومنة الفلاحية والرومنة المالية والرومنة الصناعية وغيرها من المجالات الاقتصادية الحيوية التي احتلت لأجلها روما هذا المجال الممتد والغني في نفس الآن.

ويُعَدّ انتشار الضيعات (Villae) بالحواضر والقرى مظهرًا أساسيًا من مظاهر الرومنة الفلاحية بموريطانيا الطنجية. وهنا يمكن التمييز بين نوعين من الضيعات: ضيعات حضرية (villae urbanae) هي عبارة عن إقامات شيدتها النخبة الرومانية والأثرياء على غرار المنازل والإقامات الحضرية بالمدن[١١]. وقد عرفت هذه الضيعات أوج انتشار لها حسب البعض خلال الفترة الممتدة من وفاة الإمبراطور تيبير (Tibère=14-37)، وإلى غاية مجيء الأسرة الفلافية (les Flaviens=69-96)[١٢]، ويبدو أن هذا النوع من الضيعات استمر خلال العهد الإمبراطوري الأسفل (Bas-Empire) بالنظر إلى ارتباطه الوثيق بالحياة البلدية للمدن. أما النوع الثاني فهو عبارة عن ضيعات قروية (Latifunda) تم تأسيسها من قبل ملاكين كبار على الأراضي العمومية (ager publicus)، واستغلت من طرف يد عاملة فلاحية، واعتمدت أساسًا على حقول الزيتون والكروم[١٣].

ويرى الباحث لوفو (Leveau) أن حضور هذا النوع الثاني من الضيعات يدل على وجود تغلغل لعدة أشكال رومانية لتطوير وتأهيل الفضاء القروي، فهي توضح اعتماد التقنيات الزراعية من قبل النخب الأهلية، وهو ما يتوافق مع الرومنة الاقتصادية[١٤]. ولا ننسى ارتباطها بنمط استغلال زراعي جديد (Colonat) عملت روما على تثبيته بشمال إفريقيا عموما. وذهبت الباحثة حمدون (Hamdoune) أبعد من هذا عندما اعتبرت هذه الضيعات فضاء آخر للسلطة والحكم[١٥]. انتشرت هذه الضيعات بربوع شمال إفريقيا الروماني، ففي الجارة موريطانيا القيصرية أبانت الحفريات التي قام بها الباحث لوفو (Leveau) بالعاصمة قيصرية، على أن "الفيلات" الأولى بالإقليم تعود لفترة حكم أوغست (Auguste=27av.-14ap)، ويقدم فيلا نادور (Nador) كنموذج في هذا الإطار[١٦]. وتحدث الباحث أوجونيو (Hugoniot) عن امتلاك النخبة البلدية المحلية بالمدينة المذكورة لفيلات وضيعات داخل المجال الترابي

للمدينة[١٧]. ولم تُستثن موريطانيا الطنجية من هذه الضيعات، رغم غياب تأكيدات إبيغرافية، بالنظر إلى خصوبة الأرض وانتشار مساحات واسعة لأشجار الزيتون ودوالي العنب وبشكل خاص بالمنطقة الشمالية. وهو ما أكدته الأبحاث الأثرية في مناطق عديدة بهذا الإقليم كما يوضح ذلك الجدول التالي:

جدول نماذج ضيعات موريطانيا الطنجية

المدينة	الموقع الأثري	اسم الضيعة	نوعها	الفترة التاريخية	المصدر
وليلي	بين وليلي ودار بلحمري	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM[18], II, 1957, p. 212.
	"باب تيسرا"	"باب تيسرا"	قروية	قبل القرن الرابع للميلاد.	BAM, V, 1964, p. 298.
سيدي قاسم	واد ردم	باب تيزرا	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 372.
بناصا	سهل الغرب	؟؟؟	حضرية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 374.
	عين الدالية	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 378.
ليكسوس	سي حاسين "الخميس"	؟؟؟	قروية	القرن الرابع	BAM, VI, 1966, p. 398.
	"بلاد جنان غازي"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 399.
	"عين موشيطا"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 399.
	"ملكية عبد القادر شابو"	؟؟؟	قروية	فترة أوغست ؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 402.
	"عين بودرعة"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 406.
	"كورات التليتة"	"كورات التليتة"	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 406.
	"إكنون"	"إكنون"	قروية	فترة أوغست أو القرنين II أو III	BAM, VI, 1966, p. 410.
	"بلاد السومة"	؟؟؟	قروية	؟؟؟	BAM, VI, 1966, p. 420.
تنكي	" ضيعة دوبوا"	؟؟؟	قروية	القرن الرابع للميلاد.	BAM, V, 1964, p. 264.

ملاحظة: جل هذه الضيعات سجلت وجود بقايا أثار بنايات بها مما يوحي بوجود فيلات **(villae)**.

تقدم لنا مدينة وليلي نموذجًا لإحدى الضيعات الواقعة بضواحي المدينة داخل إحدى الضيعات المهمة على ما يبدو، يتعلق الأمر بالفيلا القروية الرومانية المسماة "باب تيسرا" (Bab Tisra)، والتي أخليت على ما يبدو خلال القرن الرابع للميلاد، هذا ما تؤكده على الأقل اللقى الأثرية التي تم العثور عليها بعين المكان والتي تعود للفترة المذكورة. تتكون هذه الفيلا، من خلال تصميمها، من عدة مرافق وظيفية كمعصرة الزيتون والمطحنة والمخازن وأجزاء أخرى لم تحدد طبيعتها، والتي تبدو أنها مرتبطة بالأنشطة الزراعية للمنطقة. بالإضافة إلى مكان إقامة مالكها. إذ لا يمكن الحديث عن الضيعات الفلاحية بالقرى دون الحديث عن هذه الفيلات.

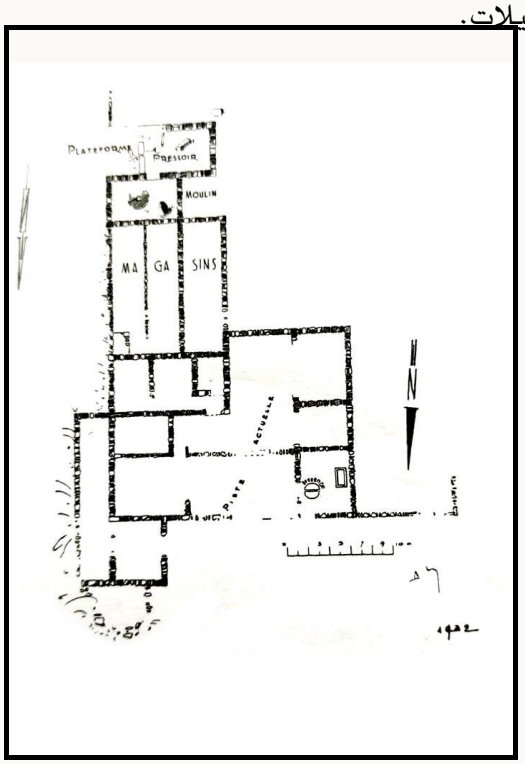

صورة تصميم

فيلا باب تيسرا القروية الرومانية بوليلي

نقلاً عن: Luquet, A. (1964). B.A.M., T. V, p. 299

وفي إطار الرومنة الفلاحية دائمًا، تتحدث إحدى الباحثات عن التقويم الفلاحي لجوليان (Julien) الذي يسمى كذلك بالتقويم الشمسي، والذي سعى من خلاله الرومان إلى التفريق بين مختلف مواسم السنة الفلاحية من حرث وغرس وحصاد، وتنظيمها[١٩]. ويتحدث الباحث كامبس (Camps) عن اعتماد سكان الريف لهذا التقويم ولفترات طويلة، حيث وظفوه خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد[٢٠].

كما يمكن الحديث عن الرومنة الصناعية، حيث شملت على سبيل المثال المعاصر وصناعة الأمفورات بالإقليم. فقد أكدت التنقيبات وجود أمفورات من نوع (Beltran IIB) بمدينة بناصا وعموم موريطانيا الطنجية، وذلك انطلاقًا من النصف الثاني من القرن الأول للميلاد وطيلة القرن الثاني منه حسب العديد من الباحثين[٢١].

ونالت الرومنة المالية حظًا مهمًا ضمن سياسة الرومنة الشاملة التي تبنتها روما بإقليم موريطانيا الطنجية، وظهرت الإرهاصات الأولى لها خلال القرن الأول قبل الميلاد من خلال إدخال اللغة اللاتينية وتضمينها القطع النقدية التي سكتها مدن موريطانيا الغربية. ويتحدث الباحث ألكسندروبولوس (Alexandropolous) عن أهم مراحل سياسة الرومنة النقدية، حيث بدأت المرحلة الأولى من سقوط قرطاج إلى غاية سنة ٤٠م، وتميزت بمحاولة الإدماج التدريجي للفضاء الشمال إفريقي داخل منظومة تهيمن فيها العملة الرومانية (سك العملة المحلية للمدن كان قائما). وامتدت المرحلة الثانية من عهد الإمبراطور كلود (Claude=41-54)، واتسمت بتزويد المدن المختلفة بالقطع النقدية الرومانية المتنوعة وذلك إلى حدود الأباطرة الأنطونيين الأوائل، مع ملاحظة أساسية تمثلت في توقف المدن عن ضرب نقودها المحلية بما في ذلك مدن موريطانيا الطنجية. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فقد وصلت فيها الرومنة النقدية ذروتها مع الإمبراطور أنطونان التقي (Antonin le Pieux=138-161)، وأصبحت معها العملة بشمال إفريقيا عموما مترومنة بشكل كامل تقريبا[٢٢].

ويظهر أن توقف المدن عن ضرب نقودها المحلية خلال فترة احتلال إقليم موريطانيا الطنجية كان لحظة مفصلية، بعد اختراق مهم للغة اللاتينية إبان فترة حكم يوبا الثاني، مما يوحي بخضوع هذه المدن بشكل كامل للسلطة الرومانية من جهة، ورغبة ساسة روما في طمس

معالم الهوية المحلية وطي صفحة الماضي البوني (le passé punique).

كما ينبغي الإشارة إلى الدور الكبير الذي اضطلع به التجار ورجال الأعمال الإيطاليون (Negociatores) في سياسة الرومنة الاقتصادية. فقد أسسوا، حسب البعض، جمعيات داخل مدن الأقاليم البعيدة التي وصلوا إليها[٢٣]، والراجح أنهم ربطوا علاقات مهمة مع النخبة المحلية للمدن. ويمكن الوقوف عند الدور المبكر لهؤلاء بمدن موريطانيا الغربية من خلال قطع الأمفورات (Amphores) التي تؤرخ لفترة الجمهورية الرومانية[٢٤] والتي تم العثور عليها بمختلف مدن المجال المذكور[٢٥].

ثالثًا: الرومنة الدينية

عولت روما كثيرًا على الجانب الديني أو ما يمكن تسميته الرومنة الدينية لمجال موريطانيا الطنجية، فقد أسست لنظام ديني جديد لم يعهده شعب موريطانيا، وأحدثت هيئات كهنوتية جديدة في الوقت الذي كانت تعرف فيه شعوب المنطقة العبادة الوثنية المحلية أو الموروثة عن الحضارة البونية. وجعلت محور هذا النظام عبادة الأباطرة، بالإضافة إلى إحداث مناصب دينية بلدية لأول مرة بهذا المجال، يتعلق الأمر بمناصب الفلامين (Flamine) البلدي والإقليمي والأوغسطال (Augustale) والسيفيرا (Sevirat) والأوغور (Augure)، والتي خدمت بشكل كبير سياسة الرومنة.

من المؤكد أن مجال موريطانيا عرف تقديسًا وتبجيلاً للملوك المور خلال الفترات السابقة للوجود الروماني، لكن هذه العبادة لم تكن منظمة ومُمَأسَسة بشكل رسمي كما سيظهر عليه الأمر لاحقًا مع السلطات الرومانية. فقد اعتمدت روما على هذه العبادة باعتبارها حجر الزاوية في نظامها البلدي، وارتكزت على المؤسسات البلدية المحلية للمدن بشكل أساسي لإرسائها وضمان استمراريتها. ويبدو أن روما طبقت القاعدة الشهيرة:" كلما كانت الأقاليم أقل رومنة كلما تم إرساء عبادة الأباطرة باكرا"[٢٦]. ويكاد يجمع أغلب الباحثين على أن عبادة الأباطرة بمختلف مراكز ومدن شمال إفريقيا الروماني تعتبر أداة مهمة من أدوات سياسة الرومنة الدينية والعامة[٢٧]، ولم يقتصر الأمر على المدن ذات القانون الروماني كالمستوطنات والبلديات، بل تعداه ليشمل المدن الأجنبية على حد سواء[٢٨]، وهو أمر طبيعي على اعتبار أن السلطة الحاكمة الرومانية كان سعيها دائمًا وراء هذه الحواضر بهدف إدماجها وإدخالها ضمن فلك ومنظومة الإمبراطورية.

وسخرت روما لهذه العبادة مناصب دينية مستحدثة ولها وزنها داخل المدن والإقليم بشكل عام. ويعتبر منصب الفلامين البلدي والإقليمي أهم هذه المناصب على الإطلاق، وعرف هذا المنصب حضورا قويا بالكوريات باعتبارها نواة الحياة البلدية بالمدن، حيث قام مُتَقَلِّدُوه من الكهنة بالسهر على الاحتفالات والشعائر الدينية المقامة على شرف الأباطرة في المناسبات الدينية وغير الدينية. هذا بالإضافة إلى مناصب جديدة أيضا لكنها أقل شأنا من الفلامين، مثل منصب الأوغسطال والسيفيرا والأوغور، والتي يمكن اعتبارها مناصب تكميلية ومساعدة للمنصب سالف الذكر.

وإلى جانب البعد البشري المذكور سلفا، أضافت روما بعدا مكانيا لم يكن موجودًا سابقًا بمجال موريطانيا الطنجية وهو فضاء المعابد، وعلى رأسها الكابيتول (Capitolium)[٢٩]، هذه المعالم الدينية الهامة والأساسية في الحياة البلدية للمدن، والتي اعتبرت رمزا ملموسا لتطور وتغلغل سياسة الرومنة[٣٠]. كما ظهرت في جل مدن موريطانيا الطنجية، مثل معابد بناصا وسلا ووليلي التي تؤرخ لبداية القرن الثاني للميلاد[٣١].

ينضاف إلى ذلك، ظهور آلهة عمومية رومانية بمختلف المدن، كانت تقدم لها القرابين والإهداءات الرسمية وغير الرسمية، وهو ما لم يألفه الموريون في الماضي. وجاء الثالوث الكابيتولي على رأس هذه الآلهة، بمعنى: يوبيتر (Iupiter) ويونو (Iuno) ومنيرفا (Minerva)، والتي انتشرت جنبا إلى جنب مع عبادة الأباطرة. دون أن ننسى الآلهة التجريدية من قبيل الربات كونكورديا (Concordia) وفيكتوريا (Victoria) وديكيبلينا (Disciplina) التي ارتبطت بعبادة الأباطرة والعبادة العمومية بمدن إقليم موريطانيا الطنجية.

رابعًا: الرومنة الاجتماعية والثقافية

لم تسلم الحياة الثقافية والاجتماعية لسكان مدن موريطانيا الطنجية من التأثيرات الرومانية، ولعل أبرز تأثير يمكن تَلَمُّسه في هذا الباب هو منح المواطنة للسكان الأجانب (perégrins). فبعد أن كانت الساكنة المحلية تتمتع تلقائيا بالمواطنة الأهلية -المحلية-، جاءت روما لتضفي عليها طابع الغربة في البداية قبل أن تمنحها المواطنة الرومانية، مما شكل تحولا جذريا في الهوية المورية. ظهرت النتائج الآنية لهذا التحول على مستوى الأسماء، حيث أصبح كل مواطن روماني "طنجي" يحمل الاسم الثلاثي (tria nomina)[٣٢]، بعدما كانوا يحملون الاسم الأحادي متبوعا بلقب معين. واختفت الأسماء الليبية والبونية لصالح الأسماء اللاتينية والرومانية[٣٣]، وهو ما تظهره بجلاء مختلف النقائش اللاتينية الخاصة بالإقليم.

كما عرفت البنية الاجتماعية المورية تغييرات جمة، فقد ظهرت عائلات جديدة مترومنة حملت مشعل الرومنة المحلية وقامت بالدور الروماني في إدماج غير المترومنين. اعتبرها الباحث ألبيرتيني (Albertini) وكلاء نشيطين للرومنة[٣٤]. وتضاعف دورها بشكل تدريجي، ففي مدينة وليلي كانت العائلات الكبرى تعد على رؤوس الأصابع خلال السنوات الأولى للاحتلال، تمثلت في الكايكيليين (Caecilii) والفاليريين (Valerii) والفابيين (Fabii)، لكنها سرعان ما عرفت تزايدا ملحوظا في السنوات اللاحقة.

وطفت إلى السطح نخبة محلية - يمكن تسميتها النخبة البلدية- انبثقت عن هذه العائلات، مكنتها روما من المواطنة وامتيازاتها المتعددة، وامتلكت شيئا فشيئا سلطة المال والقرار داخل المدن لتنخرط بدورها في سياسة الرومنة. لقد شكلت هذه النخبة النموذج الذي استهوى الساكنة الأجنبية بالمدن، والتي لم تتوان في اقتفاء أثرها واتباع مسار ترومنها. ظهرت مع هذه النخبة ظاهرة اجتماعية جديدة ارتبطت بالحياة اليومية داخل المدن، إنها ظاهرة الوهب والمنح والعطاء (Evergétisme). لم تقتصر على الجانب الاقتصادي وحسب، بل شملت أيضًا الجانب الاجتماعي وكان لها دور كبير في الحياة العامة للمدينة. ويمكن اعتبارها مظهرا آخر من مظاهر سياسة الرومنة داخل المدن. بل إن أحد الباحثين اعتبر هذه التبرعات التي أنفقتها النخبة عاملاً مهمًا في سياسة الرومنة الحضرية للمدن الأجنبية[٣٥].

كما عرف المجال الثقافي بموريطانيا الطنجية العديد من التغيرات، شكل انتشار اللغة اللاتينية أهم معالمها الكبرى. فقد كانت هذه اللغة القناة الرسمية لتحقيق هدف الرومنة الذي سطرته روما منذ المراحل الأولى لغزو شمال إفريقيا عموما. وقد اعتمدت في نشر اللغة اللاتينية على مبدإ التدرج، حيث بدأت بالفئات الأكثر ارتباطا بروما – وجهاء المدن والقبائل والموظفين البلديين...- وعن طريق هذه الفئات وبفعل الاحتكاك اليومي مع باقي مكونات المجتمع، تمكنت روما من تمرير نشر لغتها، وفرض مقومات ثقافتها على عموم الساكنة. وقد ساهمت النقائش اللاتينية بدور فعال في هذا الصدد، على اعتبار أنها مرآة تعكس ثقافة المستعمر ووكلائه داخل المدن، وقد أرخت أولى هذه النقائش لفترة حكم الإمبراطور كلود، مما يجعلنا نعتقد بتركيز الساسة الرومانيين على الرومنة اللغوية والثقافية كبداية لمسلسل الرومنة العامة داخل إقليم موريطانيا الطنجية. ولا يجب أن نغفل كون اللاتينية كانت لغة الإدارة والمراسلات الرسمية. وفي السياق ذاته يعتبر الباحث لورو (Le Roux) أن إرساء النظام البلدي بالمدن يدخل ضمن استراتيجية تهدف إلى الإدماج الثقافي والاجتماعي للساكنة[٣٦].

ويتحدث بعض الباحثين عن دور المدارس والمسارح في مسلسل الرومنة الثقافية للمدن[٣٧]. وإذا كانت المعطيات النصية والأثرية والنقائشية بخصوص المدارس منعدمة بإقليم موريطانيا الطنجية، فإن المسارح في المقابل أكدتها الأبحاث الأركيولوجية في بعض المدن مثل ليكسوس، مما يوحي بدورها في رومنة الساكنة المحلية التي لم تعهدها من قبل. وظهر ما يعرف ببرنامج المدن الخاص بالاحتفالات والألعاب التي تقام بمسارح المدن على شرف الآلهة والأباطرة[٣٨]. وأصبح سكان مدن الإقليم يستفيدون من خدمات توفرها لهم الهيئات البلدية بموجب القوانين البلدية ذات الصلة، وذلك بعد

تشييد المرافق العمومية اللازمة من فوروم وكوري والمحكمة، والسوق، والحمامات، والمسارح.

خامسًا: الرومنة العسكرية

يُعَدّ الجهاز العسكري الروماني أداة مزدوجة لرومنة الأقاليم المحتلة، حيث تركت مختلف عناصر الكتائب والألوية التي رابطت بمدن هذه الأقاليم بصماتها على الساكنة المحلية غير المترومنة، وبالتالي أثرت فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، من خلال اللغة والهندام والعادات والتقاليد المختلفة التي جلبتها معها هذه العناصر التي تحمل في غالبيتها المواطنة الرومانية. ومن جهة ثانية، فقد استُقْطِبت وجُندت عناصر جديدة ومُنِحت المواطنة في أعقاب الخدمة العسكرية التي شكلت أداة فعالة لسياسة الرومنة[٣٩]. وارتبطت الرتب العسكرية والتدرج في مراتبها على ما يبدو أشد الارتباط بسياسة الرومنة، وفي هذا الصدد يرى بعض الباحثين أن ولوج النخبة الإقليمية لهيئة الفرسان رهين بدرجة رومنة هذه الأقاليم[٤٠]. ويعتقد أحد الباحثين أن الأقاليم التي أمدت الجيش الروماني بأكبر عدد من الفرسان هي الأقاليم الأكثر ترومنا، ويقدم إقليمي إسبانيا (Hispania) وغاليا النربونية (Gaule Narbonnaise) باعتبارهما إقليمين يحتلان الصدارة ضمن الأقاليم الغربية على مستوى أعداد الفرسان التي تنحدر منهما[٤١]. أدرجت السلطات الرومانية باحتلالها للمجال الموريطاني مفهوما جديدا على شعوب المنطقة، يتعلق الأمر بمفهوم الحدود. سواء ارتبط الأمر بحدود المستوطنات والبلديات، أو بحدود الإقليم. فقد عملت روما في الحالة الأولى على تغيير التنظيم الترابي والمجالي للمدن المحتلة من خلال عمليات المسح العقاري (Cadastration) وترسيم الحدود (Centuriation)، مما جعل الباحث لاسير (Lassère) يعتبر الأمر نوعا من أنواع الرومنة[٤٢]. وذهبت الباحثة حمدون إلى وجود تطور في سياسة الرومنة من خلال الدور الكبير الذي قامت به المستوطنات والبلديات أمام غياب توسع الحدود الجغرافية للرقعة المسيطر عليها من قبل روما خلال القرون الثلاثة الأولى[٤٣]. أما في الحالة الثانية فقد أنشأت روما ما يعرف بالليمس (limes) -حدود الإقليم-، وهي حدود لم تألفها شعوب المنطقة المذكورة، واعتبر الباحث أوزينا (Euzennat) أنها مرتبطة بمدى تطور وتقدم سياسة الرومنة[٤٤].

وظهرت من جهة أخرى بعض العادات العسكرية-البلدية، إن صح هذا التعبير، والتي أفصحت عنها الإبيغرافيا. وتتجلى في قيمة الوسام العمومي الذي كان يمنح للفرسان والقادة العسكريين خلال مزاولتهم لمهامهم داخل المدن أو خارجها[٤٥]، والراجح أن تكون المجالس البلدية المحلية أشرفت على منح هذا الوسام. لكن السمة البارزة فيما يتعلق بسياسة الرومنة العسكرية بموريطانيا الطنجية تتجلى في الدبلومات العسكرية. هذه الشهادات التي عرفت مدينتا وليلي وبناصا العدد الأكبر منها على مستوى الإقليم المذكور. كما أن هذه الدبلومات شكلت نسبة مهمة من النقائش، مما يدفعنا للاعتقاد بأنها كانت وسيلة أساسية لمنح المواطنة الرومانية للأجانب. وهو ما جعل الباحث توفنو (Thouvenot) يعتقد أنها تأكيد جديد لدور الجيش في مسلسل رومنة الإقليم[٤٦].

ومن خلال قراءة متأنية في مختلف دبلومات مدن موريطانيا الطنجية، والتي تؤرخ للفترة الزمنية الممتدة من الربع الأخير للقرن الأول للميلاد إلى أواخر القرن الثاني للميلاد، يتبين أن بنيتها الداخلية وديباجتها العامة وردت على الشكل التالي:

الافتتاحية الإمبراطورية: تتضمن اسم وألقاب الإمبراطور المانح للدبلوم.

المستفيدون: بمعنى الجنود المنضوون تحت لواء الجيش والمنتمون لمختلف التشكيلات العسكرية المرابطة بالإقليم، مع إبراز قائدهم وعدد سنوات خدمتهم بالجيش.

عبارة منح المواطنة: "منحت المواطنة" بتاريخ كذا، وفترة حكم الإمبراطور الروماني.

الفارس: كان لابد من تضمين الدبلوم اسم الفارس.

عبارة التحقيق: تعتبر العبارة الشهيرة في جميع الدبلومات تقريبًا: "نسخة محققة طبق أصل اللوحة النحاسية أو البرونزية المثبتة بروما بالكابيتوليوم (Capitolium) في أقصى اليسار للجهة التي توجد بها الوثائق العمومية.

الشهود: دائمًا ما كان يتم تذييل هذه الدبلومات بأسماء الشهود الذين حضروا هذا التشريف.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الدبلومات العسكرية، رغم كونها قاعدة بيانات مهمة للمجند لكونها تضم مساره المهني، إلا أنها شكلت وثيقة جديدة على المجندين من الفئات الأجنبية الذين لم يتعودوا على مثل هذه الوثائق، مما جعلها علامة مادية على مسلسل ترومن هذه الفئات.

خَاتِمَةٌ

تبدو إذن الآثار الرومانية واضحة على مناحي الحياة البلدية المختلفة لمدن موريطانيا الطنجية[٤٧]. وقد اتخذت هذه التأثيرات، التي هي في حقيقتها رومنة واضحة، أبعادًا سياسية واقتصادية، واجتماعية، ودينية، وثقافية. فرغم استمرار اللغتين البونية والبونية الجديدة في التداول على المستوى الشعبي فيما يبدو بهذه المدن، إلا أن اللغة اللاتينية وجدت مكانًا لها ضمن فئات عريضة من المجتمعات المحلية للمدن، وهو الأمر الذي سهل عملية الإسراع في مسلسل الرومنة في الميادين المختلفة كما رأينا بين ثنايا المقال الحالي.

الإحالات المرجعية:

(١) يُقصد بموريطانيا المملكة القديمة التي تقع شمال غرب القارة الإفريقية، والمجال الجغرافي للمغرب والجزائر حاليًا، والتي قُسِّمت إبان الاحتلال الروماني، وبالضبط خلال نهاية النصف الأول من القرن الأول للميلاد إلى إقليمين منفصلين: موريطانيا الطنجية وعاصمته مدينة تنكي، وموريطانيا القيصرية وعاصمته قيصرية.

(٢) حول الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية، انظر: ابورك، هشام. (٢٠٢٣). **الوضعية القانونية لمدن موريطانيا الطنجية**، دار قرطبة للطبع والنشر، الدار البيضاء.

(٣) الموريون: الشعوب التي قطنت المغرب القديم.

(٤) يقصد به الحضارة القرطاجية التي امتدت من ٨١٤ ق.م. تاريخ تأسيس المدينة من قبل الفينيقيين، إلى ١٤٦ ق.م. تاريخ انهيارها أمام المد الروماني.

(5) Février, P.-A. (1996). Le fait urbain dans le Maghreb du IIIe siècle. Les signes d'une crise ?. In : La Méditerranée de Paul-Albert Février [recueil d'articles], Rome, (col. E.F.R., 225) p. 814.

(6) Gascou, J. (1982). La politique municipale de Rome en Afrique du Nord, I- De la mort d'Auguste au début du IIIe siècle, *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt*, II, 10-2, p. 158.

(7) Lepelley, C. (2005). Deux ruptures dans l'histoire de l'Afrique romaine : les Flaviens et les Vandales, *Pallas*, N. 68, p. 54.

(٨) Thébert, Y. (1978). Romanisation et déromanisation en Afrique : histoire décolonisée ou histoire inversée?. *Annales. Economies, sociétés, civilisations*. 33e année, N. 1, p. 69.

(٩) قاضيان تمتعا بالسلط السياسية والإدارية والقضائية والتنفيذية، كانا على رأس المدن البونية قبل مجيء الرومان كمدينة وليلي.

(١٠) Jodin, A. (1987). Volubilis, regia Iubae, Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique préclaudien, Paris, pp.210-211.

(11) Leveau, P. (1983). La ville antique et l'organisation de l'espace rural : villa, ville, village, *Annales, Economies, sociétés, civilisations*, 38e année, N. 4, p. 921.

(١٢) Homo, L. (1899). Le domaine impérial à Rome. Ses origines et son développement du Ier au IVe siècle, *Mélanges d'archéologie et d'histoire*, T.19, p. 117.

(١٣) Lamboley, J.-L. (1995). Lexique d'histoire et de civilisation romaine, Paris, Ellipses, p. 223.

(14) Homo, L., ibid. p. 932.

(15) Hamdoune, C. (2012). Le paysage du pouvoir dans les tribus de Césarienne d'après Ammien Marcellin, [L'*Africa Romana*, *Atti del XIX Convegno di studio*, Sassari 16-19 dicembre (2010)], Sassari, p. 947.

(16) Leveau, P. ibid., p. 923.

(17) Hugoniot, C. (2005). Peut-on écrire que les spectacles furent un facteur de romanisation en Afrique du Nord ?, *Pallas*, N. 68, p. 951.

(18) Bulletin d'Archéologie Marocaine

النشرة الأثرية المغربية.

(19) Boudouhou, N. (2004). La population de la région du piémont rifain entre le Loukkos et le Sebou (Maroc) de la période romaine à la période islamique. [*L'Africa Rom*ana, *Atti del XV Convegno di studio*, Tozeur, 11-15 diecembre (2002)], Sassari, pp. 617-618.

(20) Camps, G. (1984). Rex gentium Maurorum et Romanorum, Recherches sur les royaumes de Maurétanie des VIe et VIIe siècles, *Antiquités Africaines*, T. 20, p. 215.

(21) Arharbi, R. Lenoir, E. & alii. (2006). Recherches sur le quartier méridional de Banasa, [*L'Africa Rom*ana, *Atti del XVI convegno di studio*, Rabat, 15-19 dicembre, (2004)], Sassari, pp. 2142-2156. XVI, p. 2146.

(22) Alexandropoulos, J. (2005). Monnaie et romanisation en Afrique antique I er siècle av. J.-C. - II e siècle ap. J.-C., *Pallas*, T. 68, p. 203.

(23) Tran, N. (2014). Les hommes d'affaires romaines et l'expansion de l'Empire (70 av. J.-C-73 ap. J.-C.), *Pallas*, T. 96, p. 116.

(٢٤) الفترة التي تمتد من ٥٠٩ قبل الميلاد إلى ٢٧ للميلاد، وتشير أيضًا إلى نظام الحكم الذي ساد روما القديمة بعد نظام الملكية وقبل النظام الإمبراطوري، والذي كان أوليغارشيا من خلال سيطرة الأقلية الثرية على السلطات التشريعية والتنفيذية.

(25) Majdoub, M. (1996). La Maurétanie et ses relations commerciales avec le monde romain jusqu'au Ier s. av. J.-C., [*L'Africa Romana, Atti del XI Convegno di studio*, Cartagine 15-18 dicembre (1994)], Sassari, p. 297.

(26) Etienne, R. (1974). Le culte impérial dans la Péninsule Ibérique d'Auguste à Dioclétien, éd. De Boccard, Paris, p. 143.

(27) Clavel-Lévêque, M. & Lévêque, P. (1984). Villes et structures urbaines dans l'Occident romain, Seconde édition, Besançon, (Col. I.S.T.A., 288), p. 312.

(28) Kotula, T. & Michalak, M. (1976). Les Africains et la domination de Rome, *Dialogues d'Histoire Ancienne*, Vol. 2, p. 342.

(٢٩) سمي كذلك حسب إزيدور لأنه رأس (caput) المدينة ورأس ديانتها: Isidore, Ety., XV, II, 31.

(30) Thébert, Y. (1973). La romanisation d'une cité indigène d'Afrique : Bulla Regia, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, (Antiquité)*, T. 85, p. 255.

(31) Brouquier-Reddé, V., ElKhayari, A., & Ichkhakh, A. (2006). Lixus, de l'époque phénicienne à la période médiévale : le quartier dit "des temples", [*L'Africa Romana. Atti del XVI convegno di studio*, Rabat, 15-19 dicembre, (2004)], Sassari, p. 1898.

(٣٢) على سبيل المثال ماركوس فاليريوس سيفيروس (Marcus Valerius Severus) أول حاكم لمدينة وليلي بعد أن تحولت إلى بلدية.

(٣٣) من الألقاب اللاتينية التي شاعت بمدن موريطانيا الطنجية، نجد: Adlectus, Aelius, Afrinus, Albinianus, Amatia, Anicelliana, Antonianus, Anullus, Apollinaris, Ausonius, Balbus, Bubulcus, Caecilianus, Caius, Caligatus, Calvus, Capito, Cassianus, Catellus, Celsinus, Celsus, Cerialis, Clemens, Cogitatus, Commuinis, Concordius, Compitarius, Cornelianus, Crispus, Dativus, Domitianus, Donatus, Euventius, Emilianus, Fabianus, Faustus, Felicissimus, Felicitas, Felicisumus, Feliclus, Felix, Festus Flaccus, Flavinus, Florinus, Fortunatus, Fronto, Fauscinus, Gaetulus, Gallus, Gellianus, Gemellus, Germanillus, Germanus, Gracilis, Honoratus, Ianuarius, Ingenvus, Italus, Julianus, Julius, Junior, Iustus, Lacaetanus, Latro, Licinianus, Lucanus, Lucianus, Lucifer, Lucius, Lucillus, Lupercillus, Macedus, Manlianus, Manlius, Marcellinus, Marcius, Marcus, Marinus, Martialis, Masculus, Maternus, Matrona, Maturus, Maurus, Maximinus, Maximus, Mircellianus, Modestus, Nerva, Nonnus, Passer, Paterculus, Paternus, Paulinus, Peregrinus, Polionillus, Pmopeianus, Porcelus, Praefectus, Primitivius, Primus, Priscus, Proculinus, Primigenius, Pudens, Quadriatianus, Restutus, Rogatianus, Rogatus, Romanius, Rufus, Rusticillus, Sabinianus, Sabinus, Sallustianus, Sassius, Saturninus, Secundus, Senatus, Seneca, Senior, Servatus, Severus, Sixtinus, Silvanus, Suavillus, Suavis, Suetus, Summus, Ttirius, Tatius, Titullus, Titianus, Tuscus, Valerius, Valerianus, Varus, Venerinus, Vicarius, Victor, Victorinus, Vitalis, Ursulicus, Urbanu.

(34) Albertini, E. (1955). L'Afrique romaine, mise à jour par Louis Leschi, Alger, p. 41.

(35) Hugoniot, C. (2000). Rome en Afrique de la chute de Carthage aux débuts de la conquête arabe, Champs-Flammarion, Paris, p. 123.

(36) Le Roux, P. (1991). Le juge et le citoyen dans le municipe d'Irni, *Cahiers du Centre G. Glotz,* Vol. 2, p. 123.

(37) Feugère, M. & alii. (1998). Signes de la romanisation, *Revue archéologique de Narbonnaise*, T. 31, pp. 299-353., p. 327 ; Hugoniot, C. Peut-on écrire.., ibid., p. 257 ; Clavel-Lévêque, M. & Lévêque, P. Villes et structures.., ibid., p. 273.

(38) A.E., 1986, 333.

(39) Albertini, E. ibid., p. 47.

(40) Clavel-Lévêque, M., & Lévêque, P. ibid., p. 227.

(41) De Laet Sigfried, J. (1941). La composition de l'ordre équestre sous Auguste et Tibère, *Revue Belge de Philologie et d'Histoire*, T. 20, p. 521.

(42) Lassère, J.-M. (1977). Vbique Populus. Peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 av. J.-C.- 235 ap. J.-C.), Paris, Ed. C.N.R.S., p. 73.

(43) Hamdoune, C. (1995). Frontières théoriques et réalité administrative : le cas de la Maurétanie tingitane. In : Frontières terrestres, frontières célestres dans l'Antiquité, Paris, p. 257.

(44) Euzennat, M. (1990). La frontière romaine d'Afrique, *Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et et Belles-Lettre*, 134e année, N. 2, p. 565.

(45) IAM2, 424/425/427.

(٤٦) Thouvenot, R. (1942). Troisième diplôme militaire trouvé à Banasa (Maroc), *Comptes-rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et et Belles-Lettre*, 86e année, N. 4-6, p. 179.

(٤٧) لمزيد من الإيضاح حول طبيعة هذه الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية انظر دراستنا: ابورك، هشام. (٢٠٢٤). جوانب من الحياة البلدية بمدن موريطانيا الطنجية، دار القلم للطبع والنشر والتوزيع، الرباط.